المقدمة

انتابتنى فرحة غامرة كملايين المصريين الذين سعدوا بهذا الخبر المفرح الصاعق، وظللت أتابع الأخبار التى توالت تترى، عن عالمنا الألمعى؛ كيف نشأ وكيف سافر وكيف خطا خطواته الأولى نحو العالمية؟.. كيف كانت مشاعره حين علم بنبأ فوزه؟ وكيف يرى مصر من بعيد؟ وكيف يراها من قريب؟ وكيف تراه مصر؟.

لكنى لم يكن فى ذهنى شىء إطلاقًا من هذا الموضوع أكثر من مجرد مشاعر فياضة.. حتى قرأت دعوة الأستاذ الجليل «ألفريد فرج» فى مقاله الأسبوعى بالأهرام، إذ كان يطالب بأن يتطوع واحد فيجمع كل ما انبست به شفتا زويل، فى كتيب يكون نبراسًا لكل من يتنسم خطاه أو يريد أن يهتدى بهديه.

وراقت لى الفكرة من عد أوجه، وتمنيت لو كنت سابقًا لنيل هذا الشرف الرفيع. فالرجل غير عادى، لا أقول من نبلاء العصور الوسطى وفرسانهم، ولا أقول أنه من جنى الأساطير الخوارق، ولا هو مجرد بطل مغوار لايشق له غبار، ولكنه فلاح مصرى نسيناه أو فتناه أو فاتنا وتخطيناه أو تخطانا. إنه المصرى الذى تضاءل داخل كل منا وتقزّم فاندثر تحت أكوام من الأتربة وركام من هزل ومسوخ ولهاث خلف أضواء الزمن الحديث، تلك التى تعمى الأبصار وتذهب العقول.

إيه يا مصر التى ترقد فى المضاجع.. أين أنت من مصر الزمن الجميل والإنسان الجميل والمكان الجميل.. ليست دعوة للارتداد إلى الخلف.. فالجمال لا يجب أن يخضع لقوانين التطور والزمن والحداثة.. بل بالعكس، فإن الزمن قد يسير فى عكس اتجاهه، بأن يضفى مزيدا من التجاعيد والترهلات إلى الوجه الذى كان صبوحًا ونضرًا نديًا. إن الجمال قيمة تستشعر وتُحس، والقيم الأصيلة لا تتغير أو تتبدل، كالمعدن النفيس.

فأى زمن هذا، ذلك الذى وسم بسمة نجومه من أهل الفن الرخيص والأدب الرخيص والعلم الرخيص والإدارة الرخيصة.. حتى صار الرخص والزيف هما العنصران الطاغيان على مصرى هذا الزمان.. أين الأصالة يا أصلاء؟.. أين الرجولة يا رجال؟.. وأين الفتوة يا فتيان؟.. يا من صارت العضلات المفتولة إليكم، محض استعراض لجمال الأجسام، لا لكمال العقول.

إن ما أتى به زويل ليس خارقًا أو فوق العادة.. بل إنها كانت العادة، حين كانت مصر تزخر بالرجال، الذين فوتوا «نوبل». إن أجمل ما فعله زويل هو أنه أتاح لنا التذكر، وأتاح لبعضنا جرأة أن يستوقف البعض الأخر ليتساءلون معًا؛ ماذا فعلنا بأيامنا، بأوطاننا وبأنفسنا؟. والأجمل؛ إنه أتاح لنا ولأول مرة منذ زمن طويل، أن نرى حمرة الخجل تتقافز إلى الوجوه الفرحة فخرًا بانتصار هو ليس تمامًا من بنات أفكارنا.. وعجبى!!

ولقد نذرت نفسى ووقتى لتلك الفكرة العظيمة.. وصرت أتقصى وأفحص وأمحّص، وأجرى خلف الخبر والقُصاصة والمقال وأقضى الساعات أمام شبكة الإنترنت وأشاهد اللقاءات التلفزيونية عدة مرات والأهم أننى وجدت نفسى مضطراً إلى أن أُعيد قراءة المراجع العلمية التى تشرح وتفصل المعجزة الزويلية.

لم أحظ بشرف لقاء الدكتور زويل، وهذا ما صعّب المسألة علىّ.. إذ كان علىّ أن أجمع كل كلمة قالها ـ على الملأ ـ بقدر ما سمحت به طاقتى المتواضعة، وأن أضم تلك الكلمات إلى بعضها، دونما حذف أو إضافة.. لقد حرصت فى هذا العمل الذى هو بين يديك قارئى الكريم، حرصت أشد الحرص على الإبقاء على النص اللفظى كما لفظته شفتا أحمد زويل.. وذلك إمعانًا فى نقل الصورة بأمانة كاملة إلى القارئ المتعطش مثلى للقاء عملاق هذا الزمان. ولعل القارئ المتابع للقاءات زويل التلفزيونية، يستشعر هذا الإفراط فى دقة نقل اللغة والحوار.

ووجدت أن الأمور قد أفضت بى إلى معضلة من نوع جديد؛ هى الفهم ولو جزئيًا لـ «إنجاز زويل» وإعجازه. من أجل ذلك فقد صرفت كثيرا من الوقت والجهد ـ ساعدتنى فى ذلك خلفية علمية لا بأس بها ـ إلى محاولة فك هذا الطلسم.. ووجدت السبيل إلى ذلك فى تفكيكه إلى :ـ ذرة وجزئ ثم كاميرا فليزر.. أليست هذه هى كل مفردات المعادلة؟!.. من أجل ذلك حاولت تقريب الصورة وتبسيطها للقارئ العادى غير المتخصص.. آملا أن يكون قد حالفنى بعض الحظ فى ذلك.

أما عن أفكار زويل ورؤاه واستشرافه لمستقبل مصر العلمى والتقنى، وذا هو لب هذا العمل وبيت قصيده، فلقد أفردت له قدرًا لا بأس به من تلك المساحة.. وإذا كنت ـ فيما رواه زويل ـ حريصًا على النص اللفظى، فأنا فيما يختص بفكره أشد حرصًا، إذ أن اللفظ فى هذا الحالة يصير ملكية شديدة الخصوصية ويتحول إلى كيان لا ينفصم بحال عن الأفكار وما يدور بالخيال. فتلك التلافيف المعقدة لمخ زويل، لن تجد أأمن من لسانه كى تحمله الرسالة، وليس لسانى ولا لسان واحد منكم، ومن ثم يصير اللفظ مسئولية كبرى.

إن لدينا فى مصر مشكلات ومعضلات، وما طفا على السطح منها هو أخفها كثافة وتاليًا أهونها.. ومصر، بثقلها ومركزيتها البؤرية، ليست استثناء فى منطقتها إلا بقدر ما عظم دورها القيادى.. ومشكلاتنا من النوع المتغلغل إلى نخاع العظم.. ولم يعد التلهى عنها بجرعات مكثفة من التسطيح والتهريج والتهييج والدفع بقيعان المجتمع إلى قمته وصنع المعجزات من الخادمات والمتشردات والراقصات وتسليطهن ليل نهار على آذان وقلوب البشر، لم يعد ذلك يجدى، وقد اشتد الخطب وعلت قرقعة السيوف وحمى وطيس المعركة وصار النزال بباب البيت. لقد دارت عجلات العولمة زاحفة إلينا، والـ «جات» (اتفاقية التجارة الحرة) تتربص بأسواقنا وتهددنا بكساد وخيم العواقب، والعلم والتكنولوجيا قد فارقانا (باعت المصانع الحربية الإسرائيلية، طائرات الحلفاء فى معارك «كوسوفو ـ

البلقان»، نظامًا للكمبيوتر متطور يمكنها من تضليل الصواريخ الأرض ـ جو التى تتهددها) والتاريخ بألفيته الثالثة الذى يوشك أن يقلع ولما نلحق به بعد!؟

وإنى لأنتهز الفرصة، وأتوجه بالشكر الجزيل للدكتور زويل، ليس لأنه رفع اسم مصر عاليًا وأشعر كل واحد فينا بالثقة والفخار وأعاد إلينا فرحة كادت تذويها إحباطات الزمن الردئ.. ليس لهذا كله أشكره، فقد فعلتها غيرى وقبلى الملايين من قلوب شعبنا الطيب. ولكنى أشكره لأنه للحظات، أوقف عجلات الهُراء والهُزل الصاخبة الدائرة الهادرة ليل نهار.. للحظات أوقف أحاديث الدجل والشعوذة، والجهالة.. للحظات جفف الزبد فوق شفاه ترغى وتعيد وتزيد باللامنطق واللاوعى. أشكره لأنه أوقف كل هذا اللحظات ووضع نقطة نظام. أشكره لأنه صرخ فى وجه النائمين والغافلين والمخدرين، بأن العلم والمنطق والعقل، هم السبيل إلى حياة كريمة، إن ظلت الكرامة تعنى لنا شيئًا.

وإذ ذاك، فإنى لأتمنى أن يضيف عملى هذا شيئا ولو ضئيلا، إلى ذاك الزخم الإيجابى المحبب الذى أحدثته جائزة زويل، آملاً أن أحظى بشرف الإسهام فى تكثيف وتكريس تلك الروح الجديدة.

أما وقد أتممت هذا العمل الشاق، فإنى أتوجه بالشكر والعرفان لهؤلاء الناس الذين لولاهم ما كان هذا العمل ليرى النور، على سبيل الذكر لا الحصر:

الكاتب الكبير «ألفريد فرج»، الصحفيون الأجلاء؛ «رياض توفيق»، «د. عبد العاطى محمد» «أحمد يوسف القرعى»، «محمود مراد»، «عاطف الغمرى»، «غادة زين العابدين»، و «حنان البدرى» والمحاور الجليل «مفيد فوزى» والتلفزيونية «صفاء قطب»، والفنان عظيم القدر والثقافة «نبيل الحلفاوى»، والإذاعيان «محيى محمود» و«وفيق مازن»، والصديق العزيز جدًا «عمرو البلتاجى» مدير ميكروفيلم الأخبار، وأ. د. «فتحى عبد الرازق» أستاذ الكيمياء بعلوم القاهرة وأساتذتى الأجلاء بكلية طب القصر العينى الذين علمونى أصول البحث العلمى، وعلى رأسهم أ.د. «نبيل عبد المجيد» أستاذ الجراحة العامة، أ.د. «عمرو جاد» أستاذ جراحة الأوعية الدموية و أ.د. «مأمون إسماعيل» أستاذ جراحة التجميل، أ. «عادل طه عبد الرازق» مدير مكتبة جرير.. أما القدر الأكبر فيذهب إلى جنود الدار المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع وعلى رأسهم أ. «محمد رشاد».. والآخرون الكثيرون من المثقفين والعلماء ومحبى العلم.

د. محمد هشام عبد العليم الحديدى